حول كتاب امين الخولي

مالك : تجارب حياة

بقلم محمد محمود عبد الرازق

يعنى المؤرخون في العصر الحديث بالتاريخ للشعوب لا للافراد ، فالشعوب هي صانعة التاريخ ، وهي الازميل الواعي الذي يخلع على الحياة الجمال والبهجة ، والمحرك الدافع لها ، العامل على تخصيبها ونقلها من طور الى طور ، بقوة الفكر والعمل والتضحية . وليس معنى ذلك ان تراجم الاشخاص الى زوال ، اولا : لانه لا يمكن انكار دورالافراد في تحريك عجلة التاريخ . ثانيا : لان كل العلوم والفنون تعني اشد العناية بسير رجالها البارزين مضمنة هذه السير افكارهم وخبراتهم ، لتكون امام الجيل الناشىء نبراسا يهدى الى الرشد ويعصم من الضلال ، وقدوة حسنة تدعو الى التقليد والاضافة .

وبقدر مايعني كاتب السيرة الحديث بالفكرة والخبرة بقدر مايطرح الحسب والنسب والمآثر المنقبية جانبا . فنحن نتوق الى معرفة آراء ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية والاوتوجرافية (١) ونتحرق شوقا الى علم مالك وفقهه التي كانت تضرب له آباط الخيل ، اما سلسلة النسب بين ابن خلدون ووائل بن عطاء فمن المتبع ان نمر عليها مر الكرام ، كما لايهمنا في قليل او كثير ان « يفتل » مالك « سبلتي شاربه » او لايفتلهما وان « يفرق شعره » او يرسله ، فهذه امور قد يعنى بها كاتب الرواية او المسرحية التاريخية لاتصالها بالناحية الجسمانية للشخصية . اما كاتب السيرة الذي يدعى انها « تاريخية علمية » فيثقل على قارئه أيما اثقال ويرهقه من أمره عسرا اذا افرد فصلا كاملا (٢) للحديث عن حب مالك للثياب والزينة والوان من الطعام والشراب ، كحرصه على شرب السكر في الصيف والعسل في الشتاء ، وشغفه بالموز ومقالته فيه ،وغير ذلك من الشؤون الجبلية التي اسهب في سردها اسهابا كاد يصرفناعن اتمام الكتاب ، لولا شفاعة الشوط المتع الذي قطعناه منه ، واشراقة الشوط المقبل الذي يشير ثبت الكتاب الى امتلائه بالفقه والعلم .

هذا من جهة ..

ومن جهة اخرى ، نجد ان الخرافات الاسطورية التي كانت توافق العقلية الفطرية الفجة قد أضحت أثرا من آثار التاريخ الفكري ، الا ان تعاقب الاجيال وحاجتها الى الفهم وميلها الى المعرفة اخرج لنا منهما ولدين كريمين عزيزين على انفسنا هما القصة والسيرة ، فصارت القصة من احب فنون الادب الى قلب القارىء المعاصر ـ ان صح التعبير ـ وصارت السيرة من اشهر الوان الكتابة التاريخية واكثرها امتاعا له ، يقبل عليها متقمصا شخصية البطل تارة ، ومحتذيا بأعماله وافكاره تارة اخرى ، حتى قيل انه يقرأ وفي ذهنه سؤال حاضر دائما : ماذا لو كنت في مكان البطل ؟.. بل وقد يحكم على قيمة العمل الفني بهذة العقلية الفردية حكما ذاتيا محضا .

وما ان لاحظ كتاب القصة هذه الظاهرة النفسية الهامة حتى اصبح شغلهم الشاغل ، الا تكتب القصة لمجرد المتاع والتسلية ، وانما لخدمة الانسان .. لمعرفته لنفسه من خلال معرفته للاخرين ، ومعرفته للعالم المحيط به .. طبيعة ومجتمع . فاتسعت بذلك الهوة بين القصة الهادفة والاسطورة الام .

ولقد مرت السيرة في مسيرها الطويل بشيء كهذا حتى تخلصت من المنقبية والاسطورية التي تشكك القارىء في قيمة العمل الفني عامة.

وما السيرة الا قصة « انسان » معروف لدى التاريخ فلا يجب ان تغيب عنا آدميته . ولقد صدر عالمنا الجليل كتابه بكلمة كهذه حين قال « ما ننظر في حياة هؤلاء الرجال وعملهم وعلمهم الا النظرة الواقعية الى بشر مثلنا » .

ولكنا نعود الى « المنقبية » في ثوب جديد ، اذا ماافردنا جزءا كبيرا من الكتاب للحديث عن اخص خصوصيات المترجم له ، وحملنا « عامل الوراثة » في جزء اخر مالا طاقة له به كما سنبين ذلك في حينه ، وتزداد خطورة هذه « المنقبية الجديدة » حين تصدر عن مؤلف مشهود له بالكفاءة والعلم ، لاتخفى عليه النظريات الحديثة في « كتابة السير » .

* * *

بعيدا عن هذا كله ، نرى ان الكاتب قد اختط لبحثه خطة حميدة حين تناول اخبار المترجم له بالنقد الفاحص الدقيق المعتمد على اخر تطورات العلم ورقيه ـ كما نبه الى ذلك ابن خلدون ـ مستبعدا مايتضح انه مجرد اختلاق غير مقبول عقلا او عادة بحسب « طبائع الاشياء وقوانين العمران » (٣) ومفسرا مايشتبه في كونه من المناقب تفسيرا ماديا بحتا .

مثال ذلك : ماروى من ان ام مالك قد حملته سنتين او ثلاث ـ على اختلاف الرواة ـ وهذه عند العرب خاصية تدعو الى الفخر لان طول المدة يهيىء للارحام ظروف انجابه للنجابة وانضابه للعلم ـ كما كانوا يعتقدون ـ ولقد أحبط اعتقادهم بقول المؤلف « ربما كان منشأ مازعموه تجربة في طول الحمل انه كان من نساء ممتدات الطهر ، على قول الفقهاء، لا يحضن ، فتظن المرأة نفسها حاملا زمنا طويلا ، لعدم الحيض، وتحسب الزمن حسابا غير منضبط ، مع ان مدة الحمل الفعلية لم تجاوز القدر الذي يعرف ان العلم يعترف به في ذلك ، وهو احد عشر شهرا » .

ويقولون ان الغفلة وقلة الحذق في امور الدنيا صفة من صفات العلماء الذين لايهتمون الا بشؤون الاخرة عادة .. ويعزو بعض مترجمي مالك المتأخرين فصلا كاملا في مخطوطه يخصصه للبحث « في تغفلهوقلة حذقه في امور الدنيا » . ويروون في المناقب ان شخصا قال لمالك : ان ابا عبد الله « مرة يخطىء ومرة لا يصيب » فلم ينتبه الى هذه الدعابة وقال : كذا الناس ، فقيل له : ولكن هكذا انت ، « فلما فكر في ذلك غضب » . ومن تلك المرويات ايضا انه سئل عن « كسر ثنية ظبى »فافتى في ذلك وليس للظبى ثنية كما هو معروف .

وردا على هذه الادعاءات يقول الكاتب :

١ ـ قصة ثنية الظبي وكسرها أحجية من الاحاجي التي رويت مع مالك ومع غيره كأبي حنيفة مع تغيير في الرواية .

٢ ـ مع افتراض صحة هذه الروايات يرى انها ليست مظهرا من مظاهر التغفل وقلة الحذق لان كثيرا من الاذكياء الواعين « يكون لهم من وضوح الشخصية وقوتها مايكفي ولكنهم لايتجهون الى الانتباه الى مثل هذه « الفوازير » وتفوتهم فيها البادهة ، وان اهتم بمثل هذه الاشياء واتجه الى جمعها والعناية بها اشخاص لانصيب لهم من قوة الشخصية الا أشباه هذه البسائط ومثل ذلك نراه ايضا في النكتة والفكاهة عندما تبنى على المشاكلة اللفظية ، فلا يكون لناس من الاذكياء عناية بمثل هذه المشاكلات او المفارقات اللفظية ، وان سارع الى ادراكها من هم اقل منهم ذكاء بكثير » .

٣ ـ « كان مالك قليل الضحك فضلا عن ان يكون صاحب دعابة ،

ولو كان له اتجاه الى شيء من هذا لاسترعى انتباهه مثل هذه العبارات المتفارقة .. » .

ونحن نقدر هذا الجهد المشكور في نقد المرويات الذي يرتكز على جهد اخر يسبقه ، يبذل في جمع كافة الاخبار المتناثرة في بطون المكتب، فالكاتب لايؤمن « بمفتاح الشخصية » الذي يوجد في شيء بذاته ـ على قول البعض ـ ويقول في مقدمة كتابه الرائعة « ان احدا لايعرف مفتاح شخصية ما الا بعد ان يعاشرها ويحيط بعاداتها وأساليبها وميولها،وليس الى ذلك سبيل ما فيمن غبر ومضى الا عن طريق التاريخ والخبر ، ولا تكون عشرة ولا معرفة يحل لصاحبها ان يفتح الشخصية ويقتحم الطوية، الا بعد احاطة اوسع وأعمق من احاطة العشير الحي بتصرفات عشيره الذي يغدو امامه ويروح ، فتقصى الروية والخبرة والفطنة في ادراك تصرفاته ، وتبين اغراضه من الكثير المكرر منها لان بعضها يدل على بعض .. ولا كذلك الذاهبون الذين لا سبيل فيهم الى روية ، ولا فرصة لخبرة ، ولا مجال لفطنة اذ تأتينا افعالهم اخبارا بعيدة الدلالة ، عسيرة الابانة .. فكيف يستغنى بعضها عن بعض ، وأنى تكون ترجمة لهم دون جمع مستقص لاخبارهم كلها .. » أي ان المؤرخ يمسك « بمفتاح الشخصية » بعد الاحاطة الشاملة لاخبار المترجم له لا قبلها ، والمغالق لا تفتح الا بعد الفهم الواعي لهذه الاخبار ولا يكمن « المفتاح » في شيء بذاته كما يدعون .

* * *

ويأتي دور التفسير ـ بعد الجمع والنقد ـ فيتناول المؤلف بالتفسير الاخبار التي صمدت للنقد وثبتت صحتها وارتقت في نظره الى مرتبة الدليل القاطع او الوثيقة المعترف بها للكشف عن جوانب من شخصية المترجم له .

ومالك كما نعلم يماني الاصل ، هاجرت اسرته من الجنوب الى الشمال ، واستقرت بالمدينة ، ولما كانت الحياة في بلاد الغربة في حاجة الى قوة تؤمنها ودرع يحميها حالفت الاسرة قرشيا من بني « تيم بن مرة » .. ولا يحفظ التاريخ عن ام مالك حتى مجرد اسمها وقد قيل انها كانت مولاه لتيم بن مرة كأسرة زوجها ، وقيل انها يمنية أزدية من انفسهم . ورغم اعتراف الكاتب بهذا الغموض نراه يبني على أزدية الام خاصة ويمنية الاسرة عامة احكاما لانقره عليها ، فاذا خرجنا من وداعه الاب التي سببتها آفته « كان مقعدا قليل الحركة » تفسيرا لعزلة مالك وانطوائه على نفسه ، لا نطمئن الاطمئنان كله الى ان اقدام مالك ودأبه على طلب العلم مرجعه أزدية الام ، لان الازد «قوم ملاحون، والملاحةتورث الاقدام بمصارعة البحر » ولا ان مالكا كان يمارس شيئا من التجارة والمضاربة لان « أهل اليمن » يميلون الى حياة العمل والصناعة . وهم « ما بين حائك برد ، وسائس فرد ، ودابغ جلد » .

وتفضيل بلد على بلد ، او جنس على جنس يستند تاريخيا ـ لو تأملنا ـ الى الشعوبية والعنصرية ، فالشعوبي او العنصري يدور في فلك بلده او عنصره المزعوم مؤثرا اياه بأياد وأمجاد ، يصور له عالمه الضيق ، وعقله محدود الانطلاق ، انها وقف عليه لايشاركه فيها حفنة من البشر ، ولا بقعة من بقاع الارض ، يلتقط عصر من عصور التاريخ كانت أمته فيه مرموقة وبلده مرهوبا ، وينظر الى مظاهر الرقي والتقدم في العصر كله محاولا الصاقها بأرض او جنس معين ، مؤكدا عليها بكل المؤكدات ، مبررا لها بكل المبررات ، ما اعوج منها وما استقام ـ وما اكثر الاعوجاج وأقل الاستقامة !! ـ كخصلة موروثة لا تنفصل ولا تنفصم عنه .

ونحن اذا ماتناولنا « مصارعة البحر » بالحديث .. أتت الينا من وراء القرون اخبار فينقيا وقرطاجنة وأثينا وروما ، كدول بحرية دوخت العالم دهرا طويلا ، ويبسم التاريخ القريب ويقول : ألم يعش الاوربيون في فزع مفزع من قرصان شمال افريقيا ؟؟.. الم يحاولوا غزو الجزائر بحجة القضاء على القرصان في عقر داره !.. ان الحياة دول ، والسيادة البحرية لاتدور مع دولة من الدول وجودا وعدما . ولكنها تدور مع البحر الكبير ونشاط دولة تبقى عليه .

ثم .. ثم ماذا تفعل بحرية انجلترا اليوم !. ماذا تفعل في عصر الصواريخ والاقمار الصناعية ؟..

معنى هذا التساؤل ان ثمة عاملا اخر يسمى «التقدم العلمي»يعمل على محو خصال تظن دولة انها وقف عليها . وتغيير مفاهيم رسخت في العقول زمنا ، فيكون « الاقدام والمخاطرة » رهنا بركوب البحر ، فرهنا بصعود الجو ، فرهنا باختراق الاثير اللانهائي الى القمر .

اما خرافة النشاط اليمني التجاري والصناعي فنذكرنا « بشعب الله المختار » وخرافة « اليهود والبنوك والتجارة » هذه الخرافة التي آن لها ان تتصدع ، وحملة بقيادة بعض مفكري اوروبا ـ وخاصة انجلترا اليوم ، تمحوها من الاذهان .

اذا كان هذا حال الدول ، فما حال الافراد الذين ينضوون تحت لواء هذه الدول ؟.. انهم بلا شك يتأثرون بايام مجدها فينشطون ، وينتشوة ثرائها فيلهون . وكذلك بايام ضعفها فيدب فيهم الخور ، وبذلة فقرها فيدب فيهم اليأس والقلق . وان كان آهل اليمن يميلون الى التجارة والصناعة كشعب أو كدولة .. في ظروف معينة ، ومع الفرض في كل الظروف ، فلا يجب ان يكون هذا حكمنا عليهم كأفراد .. حكمنا على الافراد .. كل الافراد ، ومنهم من يميل الى الاقدام والجرأة ،ومنهم من يميل الى التوكل والخنوع ، وأثر يقول ان عمر بن الخطاب رأى اناسا من « أهل اليمن » يقعدون عن طلب الرزق باسم العبادة ، فقال لهم : من انتم ؟. قالوا آ نحن المتوكلون . ولكن التوكل والورع لايدعوان الى الكسل والخمول عند عمر بن الخطاب فيثور قائلا « بل انتم المتوكلون الذين تأكلون اموال الناس بالباطل » .

هذا ـ وقد يكون هناك من يرهب الماء الكبير ، ولا يعد ذلك دليلا على عدم تمتعه بالاقدام والجرأة ، والا فماذا نقول فى مالك نفسه الذى حاول حصر اهوال الدنيا فكان اولها ركوب البحر ، وثانيها ركوب الفرس العربي .

وتواضعا يحاول الكاتب ان يعطى لهذه التفسيرات دلالة ظنية لاختلاف « المرويات مع حرمانها من السند الكاشف عن حال ناقليها » . ولكننا نرى انه حتى ولو كانت هذه المرويات قطعية الثبوت والدلالة ـ كما يقول الاصوليون ـ قطعية الثبوت لروايتها عمن يوثق به ، وقطعية الدلالة على أزدية الام مثلا ، فاننا لا نجرؤ على تحميل « عامل الوراثة » كل هذه الاحكام بعيدة الغور والجور معا ، لا نجرؤ على ان ننسب مالكا الى اصل ملكي ، ونذكر ما للنسب الملكي من أثر «على السمت والهيئة ، من توقر وقلة كلام ، وندرة ضحك ، وكراهية مزاح واشباه ذلك من ظواهر قد يغري بها هذا الاصل النسبي ولو كان مجرد دعوى مرددة » . ثم نستطرد قائلين، ولهذا كان مالك « ذا هيبة ووقار في مجلسه العلمي والعادي » ... يتخذ سودانا يقومون على راسه ويقيمون من يامر باقامته من مجلسه و .... »

اننا نعترف بالعجزالتام عن فهم مثلهذه التفسيرات !!..

والا فكيف يحافظ فقيه مسلمعلى تقاليد الاصل الملكي بتقليد مظاهره ؟ .. ان فى ذلك اتهام لمالك المجتهد في امور الدين « بالتقليد » فى امور الدنيا،وانكان التقليد فى امور الدنيا لا مشاحة عليه ، فالتقليد في آتفه هذه الامور ـ وهي المظاهر التي نهى عنها الاسلام ـ شر لا يليق بفقيه مسلم ياخذ عن عمر بن الخطاب ويقتدى به ، وقد نهى الرسول الكريم عمرا عن الكسرويةومظاهرها حين دخل عليه عمر يوما فألفى الحصير قد اثر في جنبه فبكى وقال « الا تتخذ لك فراشالينايارسول الله » فاجابه الرسول الكريم مقعدا لنظام الحكم الاسلامى قاعدته القوية المكينة « ماذا ياعمر .. اتظنها كسروية ، انها نبوة لا ملك » . اجل .. انها نبوة لاملك. وتمر السنون ويرى عمر ، حاكم دمشق يلبس الحرير ويركب العربات فيتذكر الدرس الذي لقنه اياه استاذه الاعظم فيقول « اكسروية يامعاوية ! » . فاى وزر نقترفه فى حق مالك ونحن نقرر ان هذا الاصل الملكي يحافظ عليهالناس«ولو كان مجرد دعوى مرددة » وان

هـذه الدعـوى المرددة التي لا يتشبث بهـا الا ضعاف النفوس تغـرى امـام المدينـة نفسه وفقيه عصره .

ان تفسير وقـار مالك وهيبته لا بد له من ظواهر نفسية واجتماعية (بيئة وثقافة ..) تسنـد هذا العامل الوراثي الذى يشك الكاتب فـى بعض اخباره ، ولا نوافق نحن على تحميله كل هذه النتائج وان صحت الاخبار . ولقـد لاحظ الكاتب ذلك فى بعض تحليلاته قائـر السلامـة وهـو بصدد تفسيره لشغف مالك بالغناء ، والموسيقى ، وتتبعه المغنين في بداية حياته حتى صرفته امه عنهم ، لاحـظ ان عـامل الوراثـة وحده لا يكفى فذكـر قول الاوليـن«غزل يمـان وذل حجازي » مشيـرا بذلـك الى بيئـة مالـك الحجازيـة بجانب اصله اليمـانى . وحيـنما يتصدى لرقـة مالـك ينبهنا الى غزل اليمـن وترف الحجاز ورقـة مزاج بعض اساتذته كربيعـة الرأي الذى كـان يلبس الاقمشة الرقيقة، وابن اذينـة الذى كـان شاعـر غزل صنعته الغناء ، فضـلا عـن اجادته الفقه وروايته الحديث .

كل هذه امور يبذل الكاتب فيها جهدا مشكورا . ولكنـه فـي بعض الاحيـان يريق هذا الجهـد فيمـا لا ينفع ولا يضر ولا يغنى عن النـاس شيئا ،مثله فىذلـك مثل المحارب فى غيـر ميـدان ،ومن يريـق الدم فى غيـر جهاد.مـن ذلك محاولة توفيقه بيـن ما يـروى عن حب مالـك للحم « وانه كـانيصيب منه درهـمان فى اليوم لا بـد منهما ولو ببيع شيء من متاعه » وبين ما يروى من ان اختـه كـانت « تهيىء له فطره خبزا وزيتـا » .

وبعـدتوفيقه بيـن الروايتيـن والمسالة لا تعصى على فهـم القارىء العادي ولا تحتـاج الى توفيق (٤) يقول وكانه وصل الى نتيجـةهامـة فـى امـر خطيـر « لعل المسالـةلوتلقيت هـذاالتلقى لاغنت نفسهـا واغنتنا معهـا عـن ملاحظـة هذا الاضطراب . عـلى انـه اضطـراب وتناقض قـد ضـاع معه طريق الوصول الى توفيق ، مـع ان الامر على الاخيـر الذى شرحنـاه لا اضطراب فيه ولا تناقض » . يالضيعـة الجهد المبـذول !!..

والكاتب لا يترك المسالة تمـرعنـدهذاالحـد ، وانمـا يتصـدى لحرصه هذا على اكل اللحم رغم تشبهه بعمر بـن الخطاب الـذى روى عنه فى الموطأ (٥) انه آنب رجلا اشترى بدرهم لحمـا وذكره بقولـه تعالـى « أذهبتم طيبـاتكم فى حياتكم الدنيـا واستمتعم بها » .ويحاول ايضـا الغوص فـى لا بحـر ، والمسالة مرجعها الاول والاخير الـى الجبلـة الشخصيـة .

* * *

ولعل الفصول التي تعرضت « لمالـك الطالب » و « الحياة حـول مالـك » و « مالـكالفقيه» و « فقه مالـك » هي امتع ما في الكتاب . ففي « مالك الطالب » يحدثنا عن مكان الدراسـة وزمـانها ، وقـد حرص على ان يكون كلامه عن اساتذتهمزودا ما امكن بملامح شخصياتهم العلميـة والخلقيـة والاجتماعيـة ممـا يؤثر في نفسيـة الطـالب ، خاصـة وان طالب العلم الدينى « تسود جوه ، روح التقديـر للسلف وانفعالـه بهـم » وان المطالب فىهـذا العصر كـان يختار اساتـذته ولا يفرضـون عليه فرضـا كمـا هـو الان . ولقـد كان التعـاطف بيـن مالـك واساتذته واضحـا فهـو الذى قال عن ربيعة الـرأي (٦) « ذهبت حلاوة الفقه منذ مـات ربيعه » وهـو الذى اختار ابن اذينه المولـع بالغنـاء ودرس عليه .ومن اساتذته ايضا الفقيه الكبير ابـن هرمز الذى اصل فى تلميذه الشجاعـة فى الـرأي وعدم المجادلـة بالباطـل والمسارعـة الى قول « لا ادرى » او « لا احسن » او « حتى انظـر »حال الشبهةاو الشك . وقـد روى ان مالكـا سئل حين تصدر فى اربعين مسالة فقال فى ٣٦ منهـا : لا ادرى .

وقد درس مالـك كذلـك على نافع بن سرجس وجعفر الصادق وابـن المنكدر وغيرهم من الفقهاء المعتبريـن .

ولا نكاد نخرج مـن هذا الفصل الا وفى جعبتنـا حصيلة وافيـة ـ بالنظـر الى حجم الكتاب ـ عـنفقهاء ومحدثيـن منهم المشهور ومنهـم الجدير بالاحياء مما كاد يخـرج الكاتب من حيز الترجمة لشخـص الى الترجمـة لجماعـة فى عصـر معين ، خاصـة وانـه قـد تحـدث في غيـر هذا المكان عـن رجـال اخر كـان لهـم دور معلوم في السياسـة او الفقه كمحمـد بن عبدالله الشبه ، قائـد ثورة المدينـة على الامويين ، والليث بن سعـد فقيه مصر ، وصديق مالـك الـذى يعنيه حين يقول « واخبرني من ارضى من اهل العلم » (٧).

بل ان الكتاب في جملته يعـد مرآة صادقـة لعصر مالك عله ، فنـراه يحدثنا عـن السياسـة العامة والحياة العقليـة والاجتمـاعية بالحجاز، والخلاف الفقهى المشهور بيـن اهل المدينة واهل العراق .

ولا ينسى الكاتب « العامل الوراثي » واصل الاجناس ايضـا ، مـمـا يوضح لنـا مـدى تمسكه بهـذا العنصرفيقول « وتنابز البلاد قـد يكـون صدى لتنابز الاجناس البشريـة العليـا » وهو لا يرضى عـن هـذا التنابز الذى يولـد التهاجى بالباطل ويؤثـر الا يخوض فيـه محيلا القارىء الى كتـابه الاول عـن مالك (٨) . ولكـن لا يجـوز ان نترك المسالة تمر دون اشارة الى ان هذا التنابز ، ليس مرجعـه تنابز الاجناس البشرية ، وليس مرجعه الى التفرقة بيـن اهل الرأي ويقصـد بهم اهل العراق ، وبيـن اهل الحديث وهم الحجازيـون . ولا ان الاول غواصون على المعاني لا يحجمون عن الفتـوى ، والاخـر هيابون يحرصون على ما يظهر من المعاني . فهاتان النزعتان لم تكـونا من النزعات الاقليمية بحال ـ عـما يقول استاذنـا الشيخ فرج السنهورى ـ ولم تكـن هنـاك نزعـة عراقيـة ونزعـة حجازيـة كمـا يزعمـون ، وان كـان مالـك فى الحجاز فقد كـان فيه ربيعـة الرأي والشافعي واصحابه ، وكـان من اصحاب مالـك بمصر ابن القاسم واشهب واذا كان بالعراق ابوحنيفة ومحمـد وابو يوسف وزفر من اصحاب النزعـة الاولـى فقد كـان فيـه ابـن سيريـن والثورى وابن ابى ليلـى من اصحاب النزعـة الثانيـة « أمـا قول اهل الحجاز فى اهل العراق واهل العراق فى اهل الحجاز، فهي اقوال لو صح صدورها فانما صدرت عن افراد في افراد » (٩).

* * *

وغنى عن البيـان ان نشيد برسوخ قلم امين الخولى فى الفقـه والحديث (١٠) . فبعـد مقدمة طويلة عن معنى كلمة فقه ومعنى كلمة رأي ـ وكان يجمل ان يكتفى بالتعريف ـ خاض ـ عـالمنا الجليـل في فقه مالـك ـ بعيـدا عن الفـروع متناولا اصـول الفقه بالدراسـة العميقـة محددا موقف مالـك منها وخاصة عنـد تعرضه للاجمـاع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة . وانتهى مـن هـذا البحث الجيـد الى انـه ليس مـن اليسير ان نستخرج مـن فتاوى مـالـك ومسائله وفروعه اصول كتلـك الاصول الاصلاحية « لانه فى تفكيـره وفتواه انمـا يمثل مرحلة فكـرتها عـن الاصول مبهمة جمـلة » . وعلى هذا لايسلم بانه قـد سبق عصره فى اخذ الاحكام مـن الادلـةاخذا موفيـا بحق التفكيـر الاصولـى فى صورته المتاخـرة .

ونـود ان نقول : ان لكل مجتهـد منذ كـان الاجتهاد طريقته التـى يتبعهـا ومـا يعول عليه من القواعـد،غيـران احـدا من الاوليـن لم يعـن بتدوينها باستثناء الشافعي في « الرسالة » (١١). وقد قام المتأخـرون بتدوين هذه القواعـد وتلـك الطرق وسموها باصول الفقـه .. وان جاءت هذه التسميـة متاخرة الا ان بعض هذه الاصول كان معلومـا لدى الرعيل الاول، وكل معني بشؤون الفقه يعلم ان الرسول قدقاس وان الصحابة اجمعـوا ، ومـا كـان يخفى على الصحابة والتابعين معنـى القياس والاجماع . ولـقد كانت اصول الفقه فى عصر الصحـابـة

طبعت على مطابع :
دار الغـد
تلفون : ٢٢٢٩٢١

اربعـة : القرآن والسنه والقياس والاجماع .. (وهوهنا اجماع الصحابة).

ولا ينبغى ان ننهى حديثنـا هذا دون الاشارة الى رأي قيم فى تاريخ الفقه : فعالمنـا الجليل لايوافق على تقسيم تاريخ الفقه الى ادوار وعصور كـادوار تاريخ الادب وعصوره ، بحيث يكـون مدارهـا اختلاف الظروف السياسيـة . ولا سيمـا حيث تكـون السياسـة ليست الا سقـوط دولـة كالامـويـة وقيام دولة كالعباسيـة ، وبالتالـى لا يجـوز ان نجعل من سقوط بغداد حـدا فاصلا في حياة الفقه كحيـاة الادب ، دون نظـر الى اختلاف المنعـة فى الاقاليم وقيـام دول فتيـة كالعبيدية والغزنوية لم يضرها تدهور الدولة العباسية . ولقـد كـان للدولـة العبيدية نشاط فقهي مغـايـر في اصـولـه وفـروعه فقـه بغـداد والشـام والحجـاز .

هذا ـ ولقـد وضح لنـا عدم صواب التقسيم القديم لـلادب .. وعلينـا ان ننظـر الى نشأة الفكروتطوره « ككائن معنوى » لـه مـا للكائـن المادى من نشأة وتطـور مع مراقبة حياة هـذا الكائـن فى بيئتـه الخاصـة بما لهـا مـن ملابسات وظروف تختلف عـن غيرهـا وان اثرت وتاثـرت بمـا جاورهـا .

غايـة ما في الامـر .. ان نظـرة الكاتب الى تاريخ الفقه تعتمـد اساسـا على دعامتيـن هامتيـن :

اولاهمـا : دراسـة نشأة الفقه وتطوره باعتباره عائق معنـوى لـه ما للكائـن المادى ..

والثانيـة : دراسـةالفقه فى كل مصر من الامصار على حده مـع مراعـاة التاثيـر والتاثر بالبلدان المجاورة .

اما بالنسبة للنقطـة الاولى : فليست بالنظرة المبتكرة ولا الجديدة على فكرنـا المعاصر ، فاذا ما كـان الانسـان « يولـد ويتالم ويموت » كمـا قال اناتول فرانس ، فـان القانون مثـلا : يولـد باصداره،ويتالم بتطبيقـه وسريانه من حيث الزمـان والمكـان ، ويمـوت بالغائـه. امـا مراحل حيـاة هـذا الكـائن المعنوي فهي كمـراحل حيـاة الكائن الحي .. ونلمس ذلك في تقسيم استاذنا الدكتور محمـد يوسف موسى للادوار التى مـر بهـا الفقه فى مسيره الطويل : (١) دور النشـأة :ايام حياة الرسول وانتهى بوفاته عام ١١ هـ . (٢) دور الشباب ـ فى عهـد الصحابـة وكبار التابعيـن واستمر الى مـا بعـد القرن الاول الهجرى (٣) دور النضج والكمـال ـ وانتهى فى منتصف القرن الرابع الهجـري وفيه كـان التدويـن والائمـة الكبـار . (٤) دور الشيخوخة والهرم : وهـو عهـد التقليـد الذي لا يزال مستمرا حتى الان . (١٢) .

اما بالنسبة للنقطة الثانية : وهي دراسة تطور الفقه فـي كل بـلد على حده . فقد اتبع استاذنا الشيخ فرج السنهورى هذه الخطـة مـع شيء من التصـرف منـذ زمـن (١٣) . فقـد قام بتقسيم الفقـه الـى اربعـة عصـور (١) عصر الرسول (٢) عصر الصحابة (٣) عصر كبـار التابعين . وفي هذه العصور الثلاثة لم يحـاول التفرقة بـين بـلد وبلد فليس ثمـة خلاف يستدعى التفرقـة والفقه ما زال في دور النشـوء، او الشباب ، والتابعون وان تفرقوا في الامصار الا أنهم قريبو العهـد بالرسول ولاحاديثه الكريمة دوي كدوي النحل في اذانهم والفترة التي انفردوا فيها قليلة لا تتجاوز نهايتها قبيل نهايـة دولـة بني أمية . اما العصر الرابع ـ فقد اسماه استاذنا عصر فقهـاء الامصار، دارسـا فقهاء كل بلد على حدة ومشيرا الى ظهور المذاهب الجمـاعية والـى تغيـر الظروف واختلاف الحاجات مما ادى الى اتساع نطاق الاحكـام وكثرة الاقوال مع الاقبال على العلم .

وان كان الاستاذ امين الخولي قد جاء بالخطوط العريضة لفكرتـه، دون ان تمكنـه طبيعـة الكتاب من الخوض فى التفصيلات ، ففـى اعتقادنا ان فيما ذكرناه عـن استاذينا خير تفصيل .

امـا بعـد .. فهذه خطوط متفرقة... خطها قلم يافع تحت سطور سفـر كبير ، وغاية ما نصبـو اليه ان يغـر لنـا ـ كبيـر الامنـاء ـ هذه الجـرأة .

حلوان — محمد محمود عبد الرازق

هامش

١ ـ ترجمة المؤلف لنفسه .

٢ ـ الفصل الثامن :مالك في حياته الخاصة من ص ٢٠٤ : ص ٢٣٢.

٣ ـ عبد الرحمن بن خلدون تأليف الدكتور علي عبد الواحد في ص ٢٣٤ . من نشر مكتبة مصر .

٤ ـ يقول في توفيقه انه كان يفطر خبزا وزيتا ويتغدى لحما وهـذا ظاهر من قول الاثر « تهيىء له فطره .. » ولا يحتاج الامر الى عناء ..ولا الى مجرد العرض .

٥ ـ كتاب لمالك في الفقة والحديث وفي تقديره قيل انه لم يظهر كتاب على وجه الارض بعد كتاب الله تعالى « اصح من كتاب مالك » . وينسب هذا القول للشافعي.وقد تحدث المؤلف عن الموطأ في الفصل الثالث عشر من ص ٤٠٧ الى ص ٤١١ وهو الفصل الذي افرده للحديث عن « مالـك المصنف » .

٦ ـ هو ربيعه بن عبد الرحمن الملقب بربيعة الرأس لانه كان صاحب رأي في معضلات الامور . وليس الرأي بمعنى القياس .

٧ ـ آثره الشافعي عند الموازنة بينه وبين مالك وهو يرقد بحنـي الامامين في جنوبي القاهرة غير بعيد من الشافعي وهما « الامامان » فـي اطلاق الناس الان . وهو « الامام الليثي » في الاصطلاح العامي .

٨ ـ مالك :ترجمة محررة من ص ١٥٩ الى ص ١٦٨ .

٩ ـ ص ٣٩ من مجموعة المحاضرات التي القاها أستاذنا الشيخ فرج السنهوري على طلبة قسم الدكتوراه بكلية الحقوق جامعة القاهرة عـام ١٩٥٧ ـ كتبت على الالة الكاتبة .

١٠ ـ تخرج الاستاذ امين الخولي من مدرسة القضاء الشرعي وكـان اول دفعته ، وبعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي بمقتضاه أنشئت اربع مفوضيات لمصر بالخارج « انجلترا وفرنسا وايطاليا وامريكا » . رأت الحكومة المصرية آنذاك ان تنهج نهج الدولة العباسية وتقيم اماما يرعـى شؤون الدين في كل سفارة لها بالخارج وكان ان عين امين الخولي امـاما ببارس ثم تغير اتجاهه الى روما .. وعند الغاء الامامات عام ١٩٢٧ عاد الى مدرسة القضاء الشرعي كأستاذ في هذه المرة ثم الى كلية اصول الدين فكلية الاداب ، فرغم اهتمامه بالاداب فهو في الاصل عالم من علماء الدين، فلا غرابة ان يجمع كتابه بين المجالين .

١١ ـ كتاب املاه الشافعي على تلاميذه بمصر . وبه يعتبر الشافعي اول من كتب في اصول الفقه .

١٢ ـ المدخل لدراسة الفقه الاسلامي الطبعة الثانية عام ١٩٦١ نشر دار الفكر العربي من ص ٢٢ الى ص ٦٧ .

١٣ ـ مجموعة محاضراته السابق الاشارة اليها .

في الاسواق

عيناك قدري

قصـص

بقلـم غـادة السمان

الثمن ٣ ل.ل — منشورات دار الاداب